

المؤسسة الدينية و المقومات المرجعية والتقليد

أ.م.د. فيصل عبد الجبار النصيري

٢٠٠٤م

المؤسسة الدينية والمقومات المرجعية والتقليد

الخلاصة:

قد يرفض البعض أن نطلق على الدين وما يربطه بفتة متدنية معينة من تفصيلات تتعلق بما يدور بعقيدتهم من نشاط متعدد الجوانب تحت اسم المؤسسة الدينية وقد يكون ذلك الرفض ناتج عن قداسة الفكر الديني، وعدم تشابهه في النشاطات من مؤسسات مختلفة. لذا حاول الباحث أن يدرس المؤسسات وخصائصها ويستنتج القاسم المشترك بينها، كي يصح إطلاق لفظة مؤسسة عليها.

وقد تناول البحث أهم ما يخص مقومات المؤسسة الدينية الشيعية (الاثني عشرية) في جانب المرجعية والتقليد، إذ ان الشيعة يستندون إلى قول الإمام جعفر بن محمد (الصادق) عليه السلام : (من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفا لهواه، مطيعا لأمر مولاه، فللعوام ان يقلدوه)^١. إن الدور الذي يمارسه المراجع لم يقتصر على تفسير وشرح العقيدة الدينية بل تعدى ذلك

^١ محسن الطباطبائي الحكيم، مستمسك العروة الوثقى، ج ١، مطبعة الآداب، (النجف الاشرف / ١٢٩١ هـ - ١٩٧١ م)

ليشمل مفردات الحياة المادية للناس ، فما من مشكلة إلا وحلها عند هؤلاء المجتهدين ، والذين يمتازون بكفاءة عالية على المستوى الذهني والمعرفي... .

أملأ أن يكون البحث قد أوفى في التوضيح... والله من وراء القصد.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

ماهية المؤسسة الدينية

لو قصرنا الدين على جملة من الاعتقادات والعبادات ، لتكونت فكرة ناقصة بل ومجردة ، لان المعتقدات والطقوس تهدف - في جانب كبير منها - الى التعبير عن العاطفة ، فتحول العاطفة إلى ما يشبه الدائرة ، كلما ابتعدنا عن نقطة في محيطها عدنا إليها^٢. لقد نشأ الدين عن التفاعل بين التجربة الإنسانية والطبيعة والكون. ونستطيع أن نتبين ان للدين دور كبير في نشأة بعض الدول ، كما كان العامل الرئيسي في قيام بعض الامبروطوريات العظمى ومنها الدولة الإسلامية ، بل ان السلطة عدت في بعض المراحل التاريخية تكليفا من الله سبحانه الحاكم^٣.

و المعنى العام لكلمة مؤسسة يعني ذلك التركيب المكون من أفكار وأنماط من السلوك والروابط بين الناس ، وفي اغلب الأحيان من أشياء مادية ومعنوية ، وكل ذلك منظم حول مركز لمصلحة معينة معترف بها اجتماعيا^٤.

و يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار عند دراسة المؤسسات المتنوعة عبر علاقاتها بالسلطة قدر تأثير هذه المؤسسات في ميدان الصراع ما بين الجماعات الاجتماعية المختلفة. وحسب ما تعنيه الكلمة

^٢ إيايا نعمان حكيم ، بول و فرجيني ، تراث الإنسانية ، المجلد الثاني ، (القاهرة/ بلا) ص ٧١٤

^٣ عبد الكريم احمد ، مبادئ التنظيم السياسي ، مكتب الانجلو المصرية ، (القاهرة/ ١٩٧٥) ص ٢٤ ، ٢٥

^٤ د. صادق الأسود ، المؤسسات - محاضرات القيت خلال السنة الدراسية ١٩٨٠ - ١٩٨١ على طلبة كلية القانون و السياسة - جامعة بغداد

بمدلولها القانوني، فهي مجموعة القواعد القانونية التي تتناول ذات الموضوع والوظائف، وتشكل متحدا منسقا ومنظما^٥.

وإذا اعتبرنا هذه المؤسسة، مؤسسة عامة على سبيل الفرض، فالمؤسسة العامة هي شخص معنوي أولا، وهي من أشخاص القانون العام ثانيا، وغرضها إدارة مرفق عام ثالثا^٦. والمنظمة أو المؤسسة العامة تتميز باستهداف المصلحة العامة^٧. ومصدر موارد هذه المنظمة هو موارد الإدارة العامة^٨.

غير ان الذي يلحظ على المؤسسة الدينية الشيعية^٩، انها تجمع بين المؤسسة العامة والخاصة^{١٠}. فهي تهتم بالشؤون الدينية الخاصة بمذهب إسلامي دون المذاهب الأخرى، ومصدر تمويلها وكذلك انفاقاتها تكاد تكون مقصورة على ذلك الجانب حصرا، والمؤسسة الدينية هي إحدى المؤسسات الاجتماعية، فهي من التنظيمات الأساسية التي تساعد على فهم الفرد بعد فهم طبيعته وسلوكه وعلاقته بالآخرين^{١١}.

اما المؤسسة السياسية فهي مجموعة الأحكام والقوانين التي تحدد علاقات وسلوكية الأفراد في المنظمات السياسية، كالأحزاب والجماعات والمنظمات السياسية السرية^{١٢}. وقد لعبت المؤسسة الدينية موضوعا بحثنا دورا سياسيا كبيرا سواء في العراق أو في بعض الدول الإسلامية مثل إيران في بعض الفترات، لذلك يمكن تحديد أبعاد هذه المؤسسة على انها (هيكل تنظيمي هرمي، يبدأ في قمته بالمرجع الديني الأعلى، وينتهي بأصغر رجل دين يقوم بإدارة الشؤون الدينية في قرية نائية.

^٥ اسماعيل غزال، القانون الدستوري والنظم السياسية، (بيروت / ١٩٨٢) ص ١٠

^٦ د. شاب توما منصور، القانون الإداري، ج ١، (بغداد/ ١٩٧٥) ص ١٠٢

^٧ محمد بكر القباني، نظرية المؤسسة العامة المهنية في القانون الإداري، دار النهضة العربية، (بلا/ ١٩٦٢) ص ١٨

^٨ نفس المصدر السابق، ص ٢٠

^٩ يقصد به مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية ومؤسس هذا المذهب الامام السادس جعفر بن محمد (الصادق) عليه السلام

^{١٠} من اجل التمييز بين المؤسسات الخاصة ذات النفع العام، انظر: مصطفى كامل، شرح

^{١١} د. احسان محمد الحسن، علم الاجتماع السياسي، (بغداد/ ١٩٤٩)، ص ٢٤

^{١٢} نفس المصدر، ص ٨١

وترتكز هذه المؤسسة على قاعدة من الناس (المؤمنين) عن طريق التقليد للمرجع الديني الأعلى، الذي يرجع إليه البت في الحلال والحرام والمستحب والمكروه، على وفق ما يراه في اجتهاده، وتشتمل المؤسسة هذه على جميع رجال الدين العاملين ضمنها، والعتبات المقدسة، والخوزات العلمية، والمساجد، والحسينيات، والمدارس الدينية، والمكتبات ودور النشر، طلاب العلم.... (الخ).

ولهذه المؤسسة تحويل مالي خاص^{١٣}. لذا يصح لنا ان نطلق تسمية (المؤسسة الدينية) عليها، لوجود العناصر الأربعة الواجب توفرها على أي هيكل تنظيمي لتنطبق عليه تسمية (مؤسسة)، وهي عناصر التنظيم والهدف، والاستمرارية، والتحويل المالي^{١٤}.

طبيعة الأسس التنظيمية للمؤسسة الدينية (المرجعية والتقليد)

يكون على راس المؤسسة الدينية شخص واحد أو أكثر، ممن وصلوا إلى حد كبير من الاعتبار في ما حصلوا عليه من العلوم، وما اتصفوا به من التقوى، أو ما يسمون بالمجتهدين والذين يقومون بدور الوكالة العامة عند الإمام الغائب عليه السلام^{١٥}. حتى ظهوره. ولهذا فهم يقومون نيابة بأعمال الإمام نفسه، ويرون بأن مهمتهم هي تفسير الشريعة التي جاء بها القرآن الكريم وتطبيقها، بل وتطويرها مع تطور الأوضاع الجديدة.

غير أن المجتهدين لا يشتركون مع الإمام بالقداسة نفسها، التي ترتبط بمفهوم (العصمة)، أي الحصانة من الخطأ والزلل والسهو والنسيان. ولا بد للمجتهدين أن يعتبروا أنفسهم كباقي الناس، معرضين لكل هذه الأمور التي تستوجب المغفرة من الله سبحانه وتعالى، والاعتراف باقتراف

^{١٣} من اجل التعرف على المؤسسة في الاصطلاح الاقتصادي، انظر: احمد عطية الله، القاموس السياسي، القاهرة/١٩٦٨) ص ١٢٦١

^{١٤} انظر: اكرم عبد الله صالح، المؤسسة الدينية في أفغانستان، (بغداد/بلا)، ص ٢٣

^{١٥} هو الإمام الثاني عشر عند الشيعة الامامية، محمد بن الحسن (المهدي المنتظر، صاحب الزمان)، المولود في النصف من شعبان عام ٢٥٥هـ، اختص في المرة الأولى بما يعرف بـ(الغيبة الصغرى) سنة ٢٦٦هـ، و كان فيها يجيب عن اسئلة الشعة بواسطة علماء أربعة ويسمون (السفراء) وهم: أبو عمر عثمان بن سعيد العمري، و محمد بن عثمان العمري، و الحسين بن روح النوبختي، و علي بن محمد السمري المتوفى سنة ٣٢٩هـ، حيث كان عمر الإمام آنذاك أربعاً و سبعين سنة... اذ قضى تسعا و ستين سنة في غيبته الصغرى و قبل وفات السمري بدأت الغيبة الكبرى، و تستمد هذه الغيبة الى أن يأذن الله سبحانه للإمام الظهور.

الذنوب والمجتهد أو الفقيه لا يصل إلى هذه الدرجة إلا إذا توفرت فيه شروط وخصائص تميزه عن غيره، وتجعله جديراً بان يتولى شؤون الناس المرتبطين به عن طريق التقليد^{١٦}.

إن الطبيعة العملية للنشاط القيادي الذي يتمتع بها من يحمل درجة الاجتهاد تؤكد الشرط الملقى على عاتقه وهو (مرجع التقليد) إذ يعتبر مثلاً يحتذى به في ممارسة العملية.

وفي المعنى الاصطلاحي لكلمة (الاجتهاد) لم نجد ما يدل عليها في القرآن الكريم، فقد وجدت آيات تستعمل كلمة الجهد، كما في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ الْجَهْدَ^{١٧})، وقوله تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ)^{١٨} ففي الآية الأولى جاءت الكلمة بمعنى الطاقة، وفي الثانية بمعنى بالغوا في اليمين.

وأما في السنة الشريفة، فقد وردت كلمة الاجتهاد بمادتها وهيئتها في عدة أحاديث شريفة، منها حديثه صلى الله عليه وآله وسلم لعمر بن العاص: (احكم في بعض القضايا). فقال: اجتهد وأنت حاضر؟ فقال صلى الله عليه وآله: نعم إن أصبت فلك أجران، وإن أخطأت فلك اجر)^{١٩}. وعن معاذ بن جبل إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) سأله حين بعثه إلى اليمن: بما تقضي؟ فأجابه: بما في كتاب الله. قال (صلى الله عليه وآله): فان لم تجد في كتاب الله؟ قال: فسنة رسول الله. قال ﷺ: فان لم تجد في سنة رسول الله؟ قال: اجتهد رأيي ولا آلو. قال ﷺ: الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي الله^{٢٠}.

ولا يأتي تقليد المجتهد في الضروريات كوجوب الصلاة والصوم ونحوهما، وكذلك في اليقينيات والأموال المطلقة الفهم كحرمة الكذب والزنى والسرقه.... الخ.

^{١٦} التقليد: هو اخذ قول الغير، ليس بشرط معرفة دليله.

^{١٧} التوبة، ٧٩

^{١٨} الأنعام: ١٠٩ وتكررت في سورة النمل ٢٨ والنور ٥٢ وفاطر ٤٢.

^{١٩} محمد بحر العلوم، الاجتهاد، اصوله وأحكامه، (بيروت/١٩٧٧) ص ٢١

^{٢٠} المصدر نفسه، ص ٣٠

و في عصر تكوين المذاهب كان الاجتهاد يعني القياس الشرعي ، وهذا ما أشار إليه الشافعي عندما سئل عن القياس ، اهو الاجتهاد؟ أم هما معا؟ فأجاب بانهما اسمان لمعنى واحد. وعندما سئل فما جماعهما؟ أجاب كل ما نزل بمسلم ففيه حكم للزوم ، أو على سبيل الحق ففيه دلالة موجودة ، وعليه إذا كان فيه بعينه يجب إتباعه ، وان لم يكن بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد ، والاجتهاد القياس ، وهكذا يفهم بان الشافعي رادف بين الاجتهاد والقياس واعترفهما اسمين لمعنى واحد^{٢١}.

وهناك ستة من الشروط يجمع عليها منظروا الشيعة ، وهي البلوغ ، والعقل ، والذكورة (أي كونه رجلاً حراً) ، والإيمان ، والعدالة ، والحرية على قوله^{٢٢} وإضافة إلى هذه الشروط ، فلا بد للمجتهد أن يكون طاهر المولد أي أنه نتاج شرعي لزواج أبوين لا خلل فيه ، وان يكون مجتهداً مطلقاً^{٢٣}. أما إذا كان موصوفاً بالبلادة والعجز عن التصرف ، فليس من أهل الاجتهاد ، وعليه فالمجتهد يجب أن يكون عارفاً بالدليل العقلي ، وأن يكون عارفاً بلغة العرب نحواً وإعراباً وتصريفاً ، وبأصول الفقه ليقوى على معرفة الأدلة وكيفية الاستنباط ، وبالبلغة ليتمكن من الاستنباط بحيث يميز العبارة الصحيحة من الناقصة ، وأن يكون عارفاً بالكتاب والسنة. وبالإضافة إلى ذلك فالمجتهد يفهم مقصود الشرع ويعبر على ما قيل كونه خبيراً بالكتاب والسنة والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وشرط المتواتر والآحاد والصحيح والضعيف وحال المرويات وسير الصحابة^{٢٤}. إن الحكم العام على كل مكلف في عباداته ومعاملاته أن يكون (مجتهداً أو مقلداً أو محتاطاً)^{٢٥} ، وإن عمل العامي بلا تقليد ولا احتياط باطل^{٢٦}.

^{٢١} المصدر نفسه ، ص ٣٣ ، ٣٢.

^{٢٢} المصدر نفسه ، ص ٣٣ ، ٣٢.

^{٢٣} محسن الطباطبائي الحكيم ، مستمسك العروة الوثقى ، ج ١ ، مطبعة الآداب (النجف الأشرف ١٩٧١) ص ٤٠ - ٤١.

^{٢٤} حيدر ، مصدر سبق ذكره ص ١٧٠.

^{٢٥} الاحتياط : هو العمل الذي يتيقن معه ببراءة الذمة من الوقع المجهول

^{٢٦} البزدي ، مصدر سبق ذكره ص ٣ شيخ يوسف الخراساني الحائري ، مدارك العروة الوثقى جزء ١ (النجف الأشرف - ١٣٨١ هجرية)

ومن هنا تتبين المساحة الواسعة من جمهور المؤمنين والتي ترتبط وتستند على المجتهد المقلد، والتي ستكون في الغالب متأثرة به وبنزعاته الفكرية.

والاجتهاد على قسمين، مطلق ومتجزأ. فالأول يعني القدرة على إستنباط جميع الأحكام الشرعية الفرعية في جميع الأبواب الفقهية من الطهارات والعبادات والمعاملات والعقود والإيقاعات بواسطة الملكة التي يتمتع بها المجتهد.

أما الثاني فيطلق على من اقتدر من الاجتهاد في بعض الأحكام الشرعية واستنباط جزء منها، كالعبادات مثلاً. ولا يجوز للناس تقليد المجتهد المجتزئ لعدم احاطته باستنباط جميع الأحكام، واستخراج كل حكم فرعي من أصله، ويجوز له العمل فيما اجتهد واستنبط بما يعرف بالاحتياط، وعليه واجب التقليد فيما عجز عن الاجتهاد فيه.^{٢٧}

ومن المفيد أن نذكر أن المرجعية الدينية للتقليد المطلق لا تمنح من قبل أية سلطة دينية إلا ما ندر حيث حدث أن شهدت المرجعية انتقالاً من محمد حسين النجفي المعروف بـ(صاحب الجواهر - لتأليفه كتاب جواهر الكلام) إلى الشيخ مرتضى الأنصاري.^{٢٨} بالنص على أنه سيخلفه في المرجعية الدينية بعد وفاته، وتلك بادرة جديدة دشنها النجفي في تحديد مجتهد دون غيره ليكون المرجع الديني المطلق للتقليد. وإنما تكون المرجعية من خلال الإجماع (بطيء التحرك)، والتقدير العالي الذي يديه الناس لهذا العالم المجتهد دون غيره حسب معرفته الدينية ومؤهلاته القيادية الأخرى التي تؤهله لأن يحق هذه المكانة المهمة.^{٢٩} ويعتمد المرجع الديني الأعلى للتقليد في إدارة مؤسسته الدينية على مصادر شعبية، أي من الناس المقلدين له، ولذلك فإن جميع المراجع في الفترات المتعاقبة يرفضون أية معونة أو عطية تقدمه إليهم الدولة. فالمرکز الديني للمرجع يكون غالباً

^{٢٧} الشيخ مرتضى الأنصاري، المكاسب ج ١ تعليق وتحقيق سيد محمد كلانتر مطبعة الآداب النجف الاشرف ص ٨٢ - ٨٣

^{٢٨} هو الشيخ مرتضى بن محمد امين بن مرتضى ينتهى نسبه إلى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري ولد في ١٨ ذي الحجة ١٢١٤ هجرية ١٢ مايس ١٨٠٠ ميلادية في ديزفول في ايران حاز على الإجازات العلمية مستفيداً من الشيخ موسى كاشف الغطاء (ت ١٢٤١هـ - ١٨٢٦م) ومن أخيه علي توفي (١٢٦٦ هـ - ١٨٥٠م) وقد تخرج على يديه عدد من المجتهدين منهم الميرزا محمد حسن الشيرازي وقد توفي سنة ١٢٨١ هجرية، ١٨٦٤ ميلادية. مرتضى مدرسي، تاريخ روابط عراق و ايران، تهران ١٣٥١ ماه ص ٩٦٤ - ٩٦٥.

^{٢٩} البزدي، مصدر سبق ذكره ص ٢٠١ كذلك انظر جي ايج جانس، الإسلام المقاتل، مركز البحوث والمعلومات

منفصلاً أو مستقلاً عن السلطة نتيجة الاستقلال المالي عن الحكومة والذي يرتبط بالدفع المنظم للزكاة والخمس وأثلاث الأموات وإيرادات الأوقاف وما إلى ذلك من موارد، نتيجة التزام هؤلاء المؤمنين بمعتقدهم بنظرية الولاية، والتي تأتي بعد الإيمان بالله سبحانه ورسوله ﷺ، وهي تعني الولاء والطاعة التامة للإمام المنتظر (عج)، والذي يعتبر المرجع الديني نائباً عنه^{٣٠}

^{٣٠} Hamid algr riligion and state in iran (1785 – 1906) – the role of ulama in the qajar period, university of californania press – 1969, P29.